السوريون في زمن الفتح

قلنا في المقالة التي صدَّرنا بها الجزء الماضي ان الممالك العثمانية كانت قبل عهد العرب اكثر سكاناً واوفر عمراناً مما هي عليهِ الآن حتى لا يكاد يصدَّق ان سكانها الحاليين هم نسل الذين بنوا هياكل بابل واشور وقصر وكرنك وبعلبك وتدمر

ولا يختلف اثنان في ان عمران البلاد كان بالغاً اقصاهُ في زمن الاشوريين والمصريين والفينيقيين واليونان والرومان الى القرن الاول والثاني من التاريخ المسيحي ولكن من يقرأ فتوح الشام للواقدي ونحوهِ من الكتب العربيَّة يتوهم ان سورية كانت خالية من رجال العلم والفضل في زمن الفتح وقبلهُ وبعيدهُ لانهُ لا يرى لهم فيها ذكراً ولا اثراً كأن عمرانها كان قد زال وعفيت آثارهُ منذ قرون كثيرة لكن المحققين اثبتوا ما ينافي ذلك فانهُ كان للسوريين في ذلك العصر شأن كبير في العلوم والفنون والصناعة والتجارة فقد نشأ منهم كثيرون من الاعلام مثل بروكربوس المؤرخ بل اشهر مؤرخي مملكة الروم (البزنطية) وهو سوري ولد بقيصرية من اعمال فلسطين في اواخر القرن الخامس للميلاد ودرس الشريعة وسار مع بليساريوس قائد جنود الروم من قبل الامبراطور يوستنيانوس لمحاربة الفرس سنة ٥٢٦ للميلاد ولمحاربة الوندال في افريقية سنة ٥٣٣ ولمحاربة القوط الشرقيين في ايطاليا سنة ٥٣٦ . وعاد الى القسطنطينيَّة فاكرمهُ الامبراطور يوستنيانوس وجعلهُ محافظاً على المدينة سنة ٥٦٢ . وألَّف تاريخاً كبيراً في ثمانية مجلدات اثنين منها لحروب الفرس من سنة ٤٠٨ الى سنة ٥٥٠ واثنين لحروب الوندال من سنة ٥٣٢ الى سنة ٥٤٦ واربعة لحروب القوط وهي تمتد الى سنة ٥٥٢ وألَّف ايضاً ستة كتب عن المباني التي انشأها يوستنيانوس او رممها . وعن سير الناس المتصلين ببلاطهِ . واشهر كتبهِ تاريخهُ عن الحروب لانهُ اثبت فيهِ ما رآهُ عِرأي العين او ما بحث عنهُ وتحققهُ بنفسهِ

ومنهم اغاثيريوس المؤرخ وهو من اهالي سورية وكان من كبار المحامين وقد تقلب في كثير من مناصب الدولة الرومانية ولهُ تاريخ موثوق بهِ للمدة التي بين سنة ٤٣١ و ٥٩٤

ومنهم يوحنا النحوي وسرجيوس الحمصي العالم بطبائع الحيوان . وسرجيوس الراسي الطبيب شارح فلسفة فيثاغورس وافلاطون . وساويروس الانطاكي

ووصل السوريون الى بلاد الهند واقاموا في سواحلها ووصلوا الى جبال حملايا وفي

اشعار الهنود اشارات الى التعاليم التي تعلموها من السوريين في ذلك الحين ووصلوا الى بلاد الصين في عهد الامبراطور تاي تسنغ بين سنة ٦٢٧ و ٦٤٩ وقد وُجد في بلاد الصين لوح عليهِ كتابة صينيَّة وكتابة سريانية وتاريخ الكتابتين يوافق سنة ٧٨١ المسيحية ويظهر منها ان امبراطور الصين امر حينئذٍ بترجمة الاناجيل الى اللغة الصينيَّة ونشرها في بلاد الصين وامر ايضاً بان تبنى كنيسة للمسيحيين وان السفارة التي ارسلها ملك الروم الى بلاد الصين سنة ٦٤٢ كانت من السوريين النسطوريين . وحروف الهجاء المغولية مشتقة من الكتابة السريانية

هذا من حيث تأثير السوريين في البلدان الشرقية قبيل الفتح وبعيدهُ اما تأثيرهم في البلدان الغربية فيكفي للدلالة عليهِ ما قالهُ القديس ايرونيموس وهو " ان حب الكسب حمل السوريين على ارتياد العالم كلهِ وغرامهم بالتجارة جعلهم يطلبون الغنى تحت شفار السيوف ويغلبون الفقر باقتحام المخاطر في الوقت الذي تغلب البرابرة فيهِ على المسكونة " . وقد كانت صور عاصمة الفينيقيين ملكة التجارة قبل المسيح باحد عشر قرناً وصارت في القرن الخامس والسادس بعد المسيح محور تجارة الحرير . وكان التجار يفدون على ايطاليا من صور وبيروت . وتدل الكتابات القديمة التي وجدت في آثار اوربا ان السوريين كانوا في اكثر مدن اوربا التجارية في ناربون وبوردو وليون وجينه وبمانسون واورليان وتور وباريس وستراسبرج وترف ورنزابرن وباڤاريا وفي سوث شيلدس من انكلترا . ولم يكتفوا بالتجارة بل اشتغلوا بزراعة الجنائن ونقلوا الى اوربا كثيراً من الاثمار والبقول وعلموا اهليها كيفيَّة زرعها واتجروا فيها بالمنسوجات الحريريَّة وادخلوا الى اوربا اسلوب النقش السوري وقد استخدمهم شارلمان لتنقيح ترجمة الاناجيل

وهم الذين بنوا المباني الكبيرة للملوك الحيرة وبني غسان وبني ساسان ايضاً كما يستدل من وجود اوراق العنب في نقوش تلك المباني وقد وجدت آثار عربيَّة قديمة من القرن السادس وعليها كتابات عربية وسريانية وهي تدلُّ على ان السوريين بنوها للعرب او كانوا مشتركين معهم فيها

لكن مجد الملك والاستقلال زال عنهم منذ خربت مملكتهم ولم يعد اليهم الاَّ في زمن العرب حين صارت دمشق كرسي الخلافة العربيَّة في عهد بني اميَّة ثم اعيد الملك اليها مراراً ولكنهُ كان كموج البحر وقت جزر يتقدم قليلاً ثم يرتد اكثر مما تقدَّم . وعسى ان يكون زمان الجزر قد انقضى وحان زمان المد فتعود البلاد السوريَّة مع سائر البلاد الشرقية الى اوج مجدها الذي فارقها دهوراً طوالاً